البلاغة والأسلوبية

بشير إبراهيم أبو شوفة
كلية التربية – جامعة مصراتة

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على الصادق الأمين، أفصح الخلق أجمعين، وبعد: فقد كثُر الحديث في الآونة الأخيرة حول الأسلوبية باعتبارها منهجًا حديثًا وبين البلاغة العربية باعتبارها ممثلة للأصالة والتراث، فرأيت أن أخوض غمار هذا الموضوع محاولاً أن أصل إلى حدود كلٍ منهما، وأن أحدد مسافة كل منهما من الآخر، وقد اتّبعت منهجًا وصفيًّا تحليلاً محاولاً أن أصل إلى نتائج تسهم في فهم العلاقة بين هذين العلمين، واعتمدت بعد الله وتوفيقه على مجموعة من المصادر والمراجع منها مصادر تراثية قديمة تتعلق بدراسة البلاغة، ومنها مراجع حديثة تتناول دراسة الأسلوبية والأسلوب، وجعلت البحث على ثلاثة مباحث وخاتمة، والله الموفق.

المبحث الأول: البلاغة

نشأة البلاغة:

لم يذكر العلماء أسبابًا مباشرة لنشأة علم البلاغة، غير أنه ذكرت عوامل عديدةٌ أثّرت في نشأة هذا العلم، من أهمها عاملان أساسيان هما:

1– فساد الذوق العربي: في العصر الأموي تقريبًا ظهرت بوادر فساد في الذوق اللغوي للعرب، فقد حصل انحرافٌ في ملكاتهم اللغوية، وتضاؤلٌ في الطبع العربي السليم نتيجة لامتزاجهم بالشعوب غير العربية في الفتوحات الإسلامية، ففشا اللحن في لغة العرب في الحركات الإعرابية فوضع علم النحو، واستمر اللحن بمخالطة العجم حتى وصل إلى موضوعات الألفاظ، فقد استُعمل كثيرٌ من كلام العرب في غير ما وضع له ما أدى إلى خفاء بعض المعاني القرآنية

على المسلمين؛ فانطلقوا يبحثون عنها عند أهل العلم من ذوي الاختصاص، فقد روي أن أبا عبيدة معمر بن المثنى[1] كان في مجلس الفضل بن الربيع فقال له إبراهيم بن إسماعيل الكاتب: قد سُئلت عن مسألة، أفتأذن لي أن أعرّفك إياها؟ فقال أبو عبيدة: هات، قال إبراهيم: قال الله عز وجل: ﴿ طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ ﴾[2]، وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله، وهذا لم يُعرفْ، فقال أبو عبيدة: إنّما كلّم الله تعالى العربَ على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس:

أَيَقتُلُني وَالمشرَفِيُّ مُضاجِعي ∴ وَمَسنونَةٌ زُرقٌ كَأَنيابِ أَغوالِ.

وهم لم يروا الغولَ قط، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به، فاستحسن الفضل ذلك، واستحسنه السائل، وعزم أبو عبيدة من ذلك اليوم أن يضع كتاباً في القرآن الكريم في مثل هذا وأشباهه، وما يحتاج إليه من علمه، فلما رجع أبو عبيدة إلى البصرة عمل كتابه الذي سمّاه مجاز القرآن[3].

والذي يظهر أن كتاب مجاز القرآن هو من أقدم الكتب التي تناولت موضوعات لها علاقة مباشرة بعلم البلاغة، والذي يتبادر إلى الذهن بالنظر إلى اسم الكتاب أنه يتناول المجاز بمفهومه الحالي وهو خلاف الحقيقة، غير أن أبا عبيدة لم يستعمل المجاز بهذا المعنى؛ بل تناوله بشكل واسع، فكلُّ ما يوضح المعنى ويبّينه سماه مجازًا، فتحت كلمة المجاز أورد أبوعبيدة تفسيرات

1- هو أبو عبيدة معمر المثنى التيمي من تيم قريش وهو مولى لهم ولد سنة 114هـ وقيل 110هـ بالبصرة، استقدمه هارون الرشيد إلى بغداد عام 188هـ، وقرأ عليه شيئاً من كتبه، قال عنه الجاحظ: لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه، ولما مات لم يحضر جنازته أحد لشدة نقده لمعاصريه له نحو "200" مؤلف توفي سنة 210هـ، وقيل غير ذلك، ينظر: الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط:10، 1992م ج7، ص272.

2- سورة الصافات: 65.

3- ينظر: معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط:1، 1993م، ج19، ص158-159.

لغوية، وتوجيهات لغوية ونحوية للقراءات القرآنية[1]، ومع ذلك كله فقد كان لأبي عبيدة في بعض آيات القرآن إشارات بلاغية تحت كلمة مجاز، فمثلاً عند حديثه عن قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ۝ ﴾[2] قال عنها: ((إنها من مجاز ما حذف وفيه مضمر، مجازه واسأل أهل القرية ومن في العير))[3] وهو ما عرف لا حقًا المجاز المرسل علاقته المحلية.

ومن تلك الإشارات البلاغية أيضًا قوله: ((ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب قوله تعالى: ﴿ ... حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ... ﴾[4] ((أي بكم))[5]، وهو التفات من الخطاب إلى الغيبة، ومنه أيضًا قوله: ((ومن مجاز ما جاز خبره عن غائب ثم خوطب الشاهد قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ﴾[6].

1- ينظر: مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن مثنى، تحقيق: مُحَمَّد فؤاد سزكين، " ت"، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ج1 ص49 وما بعدها.

2- سورة يوسف: 82.

3- مجاز القرآن لأبي عبيدة، ج1 ص8.

4- سورة يونس: 22.

5- مجاز القرآن، ج1 ص11.

6- المصدر نفسه، ج 1 ص11.

- سورة القيامة: 33، 34.

وقد عدّ أبو عبيدة الكناية من أنواع المجاز فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ... ﴾[1]، إنها كناية وتشبيه[2]، وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ ... وَلِيَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ ... ﴾[3]، مجازها مجاز امرأة قال الأعشى:

فَرَمَيتُ غَفلَةَ عَينِهِ عَن شاتِهِ ∴ فَأَصَبتُ حَبَّةَ قَلبِها وَطِحالَها[4].

يعني امرأة الرجل[5]، وقد عدَّت هذه الآية لاحقًا من أنواع الكناية.

ولم يكن منتظرًا من أبي عبيدة أكثر مما قام به في كتابه مجاز القرآن، فلم يكن يهدف في كتابه أن يضع أصولاً لعلم جديد وإنما أراد أن يبين ما خفي على الناس من معاني القرآن الكريم.

ويظهر أن الجاحظ قد استفاد من الإشارات البلاغية لأبي عبيدة فقد تحدث عن الفرق بين الحقيقة والمجاز فقال: ((وإذا قالوا: أكلَهُ الأسَد، فإنما يذهبون إلى الأكل المعروف، وإذا قالوا: أكَلَهُ الأسْوَد، فإنما يعنون النَّهْشَ واللَّدْغَ والعضَّ فقط، وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ... ﴾[6]، ويقال: هم لحوم الناس وقال قائلٌ لإسماعيل بن حماد: أيّ اللُّحْمَانِ أطيب؟ قال: لحومُ الناس، هي واللهِ أطيبُ من الدجاج، ومن الفراخ، والعُنُوز الحُمْر، ويقولون في باب آخر: فلانٌ يأكل الناس، وإن لم يأكلْ من طعامهم شيئا ....، وكذلك قول دُهْمان النهري:

سألْتِني عنْ أُنَاسٍ أَكلُوا ∴ شَرِبَ الدَّهْرُ عليهمْ وأكَلْ.

1- سورة البقرة: 223.

2- ينظر: مجاز القرآن ج 1ص73.

3- سورة ص: 23.

4- ديوان الأعشى، مُحَمَّد حسين، " ت"، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط:1، ص27.

5- مجاز القرآن ج2 ص181.

6- سورة الحجرات: 12.

فهذا كله مختلف، وهو كله مجاز)) [1].

وفي كتابه "البيان والتبيين" أشار الجاحظ إلى الاستعارة وذكر تعريفًا لها فقال معلقًا على قول الشاعر:

يـا دارُ قد غَيَّرهـا بلاَهَا ∴ كـأنَّما بقَـلَمٍ مَحـاها

أخْرَبَهَا عُمران مَن بَنـاها ∴ وَكَرُّ مُمساها على مَغنـاها

وطفِقَتْ سحابةٌ تَغشاها ∴ تَبكي على عِراصِها عيناها

((... قوله: ممساها، يعني مساءها، ومغناها: موضعها الذي أقيم فيه، والمغاني: المنازل التي كان بها أهلوها، وطَفقَت، يعني ظَلَّت، تبكي على عراصها عَيناها، عيناها هاهنا للسَّحاب، وجَعل المطرَ بكاءً من السَّحاب على طريق الاستعارة، وتسميةِ الشَّيء باسم غيرِه إذا قام مَقامه، ويقال لكلّ جَوْبةٍ مُنْفَتِقةٍ ليس فيها بناءٌ عَرْصة))[2].

واستمر العلماء والأدباء في دراسة هذه الملاحظات اللغوية وتداولها فيما بينهم جيلًا بعد جيل حتى وصلوا إلى علم جديد سمي بالبلاغة.

2– الإعجاز القرآني: في أواخر القرن الثاني الهجري اشتد الخلاف بين علماء المسلمين في سبب عجز العرب على أن يأتوا بمثل القرآن، فقد أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم معجزةً خالدة، وآيةً باهرة، عجز العرب الفصحاء أن يأتوا ولو بسورة من مثله، مع توفر دواعيهم وحرصهم الشديد على ذلك، وبعجز أهل الفصاحة والبلاغة من العرب آنذاك يكون غيرهم ممن جاء بعدهم أعجز، وبيّن الله سبحانه وتعالى أن إعجاز القرآن والتحدي به مستمرٌّ، فقال: قُل ﴿ لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ

1– الحيوان للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى البابي، القاهرة، مصر، ط:2، 1965م، ج 5ص 28.

2– البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، 1998م، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط:7، ج1ص152، 153.

كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝﴾[1]، وبعد أن استقرَّ في الأذهان عجزُ الجميع على أن يأتوا بمثل القرآن احتدم الجدال بين العلماء على موضوع آخر له علاقة مباشرة بالإعجاز، وهو ما الذي أعجز العرب من القرآن؟ وما هي مظاهر إعجاز القرآن؟ وللإجابة على هذين السؤالين أُلّفت كتبٌ ورسائل عديدة وأدلى كلٌّ بدلوه في هذا الموضوع من خلال ثقافته واتجاهه الديني والمذهبي، اتفقت الآراء أحياناً واختلفت أحياناً أخرى.

وقد كان لظهور القول بالصَّرفة باعتباره وجهًا من أوجه الإعجاز أثر في تسابق العلماء في الحديث عن مكمن إعجاز القرآن، وأول من نادى بالصرفة "النظام"[2] فقد طالع كثيرًا من كتب الفلسفة وانفرد بمسائل في الإعجاز منها قوله: إن الإعجاز من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية، ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة ومنع العرب عن الاهتمام به جبرًا وتعجيزًا حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظماً[3] ولم يتفق معه في هذا الرأي أكثرُ العلماء، لأن هذا الرأي ينزع كل صفات الإعجاز عن القرآن، فالإعجاز عنده فقط هو أنّ الله صرف دواعي العرب عن الإتيان بمثل القرآن.

وكان لرأي النظام في الإعجاز دورٌ كبير في تسابق العلماء في وضع المصنفات العلمية التي تتناول هذا الموضوع ، ومن أشهر المؤلفات التي ألفت في تلك الفترة رسالة النكت في إعجاز القرآن لعلي بن عيسى الرماني[4]، فعلى الرغم من أنه عدّ الصَّرفة من أوجه الإعجاز ربما لكونه

1- سورة الإسراء: 88.

2- هو إبراهيم بن سيار بن هانئ البصري أبو إسحاق النظام من أئمة المعتزلة انفرد بآراء خاصة له فرقة من المعتزلة سميت النظامية نسبة إليه، كان شاعرًا أديبًا، اتهم بالزندقة، توفي سنة 231هـ، ينظر في ترجمته: الأعلام للزركلي، ج1، ص43.

3- ينظر: الملل والنِّحل للشهرستاني بهامش كتب الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الظاهري الأندلسي، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، "ت"، ج3، ص19.

4- هو علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرماني المعتزلي يعرف بالأخشيدي وبالوراق، ويكنى أبا الحسن، وكان نحوياً في طبقة أبي علي الفارسي، وأبي سعيد السيرافي، ولد –على المشهور– سنة 296هـ، ببغداد، نشأ محباً للعلم متقناً للأدب وعلوم اللغة والنحو، ولذلك لقب بالنحوي المتكلم شيخ العربية وصاحب التصانيف،

معتزليًا فقد عدَّ البلاغة من أوجه الإعجاز أيضًا، وعرّفها بقوله: ((إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ))[1]، والرماني منذ الخطوة الأولى ألمح إلى الأثر النفسي للبلاغة لكي يجعل المعجز منها أشد تأثيرًا[2] وجعل البلاغة في ثلاث طبقات:

1- الطبقة الأعلى.

2- الطبقة الوسطى.

3- الطبقة الأدنى.

وذكر أن القرآن في الطبقة الأعلى لأنه معجز، وما دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس[3].

وجعل الرماني البلاغة أحد الأوجه السبعة للإعجاز، وقسّمها إلى عشرة أبواب، ثم شرحها بابًا بابًا،[4] وبذلك فقد خطا الرماني خطوة جديدة في اتجاه نشأة علم البلاغة.

ويظل عبد القاهر الجرجاني[5] هو المؤسس الحقيقي لعلم البلاغة وباني أركانها، فلا تذكر البلاغة إلا مقرونة بهذا العالم الفذ، وقد اهتم عبد القاهر بقضية الإعجاز القرآني شأنه في ذلك شأن بقية العلماء، وكل كتبه تقريبًا تناولت هذا الموضوع وأفرد رسالة خاصة بالإعجاز سمّاها

كان أديباً، لغوياً، فلكياً، مفسراً فقيهاً، ومتكلماً على مذهب المعتزلة، وله في ذلك تصانيف مشهورة، ينظر: معجم الأدباء ج 4، ص 1826.

1- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الخطابي والرماني والجرجاني، تحقيق مُحَمَّد خلف الله ومُحَمَّد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط:2، 1968م، ص 75.

2-ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط:2، 1978م، ص340.

3- ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص75.

4- ينظر: المصدر نفسه ص76.

5- هو عبد القاهر بن عبد الرحمن بن مُحَمَّد، أبوبكر، واضع أصول علم البلاغة، من أئمة أهل اللغة من أهل جرجان، وله شعر رقيق، وترك مصنفات عديدة، منها: دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، والشافية في إعجاز القرآن، توفي سنة 471هـ، ينظر: الأعلام للزركلي، ج4، ص48-49.

"الشافية في إعجاز القرآن"، وعبد القاهر من أشد المعارضين للقول بالصرفة في إعجاز القرآن، لذا فقد عقد في رسالته هذه فصلاً سمَّاه "فصل في الذي يلزم القائلين بالصرفة"[1]، بيَّن فيه بشكل علمي موضوعي بطلان هذا المذهب، فقال في بداية حديثه: ((اعلم أن الذي يقع في الظن من حديث القول بالصرفة أن يكون الذي ابتدأ القول بها ابتدأه على توهم أن التحدي كان أن يعبر على أنفس معاني القرآن بمثل لفظه ونظمه، دون أن يكون قد أطلق لهم وخيروا في المعاني كلها))[2]، وتتبع الجرجاني كل الاحتمالات النظرية الممكنة للصرفة مبينًا بطلانها في كل أوجهها، فقال: ((... فإن قالوا إنه نقصان حدث في فصاحتهم من غير أن يشعروا به، قيل لهم فإن كان الأمر كذلك فلم تقم عليهم حجة؛ لأنه لا فرق بين أن لا يكونوا قد عدموا شيئًا من الفصاحة التي كانوا يعرفونها لأنفسهم قبل التحدي بالقرآن والدعاء إلى معارضته وبين أن يكونوا قد عدموا ذلك ثم لم يعلموا أنهم قد

عدموه ...))[3]، وأفصح عبد القاهر عن رأيه في مظاهر الإعجاز في كتابه المسمّى "دلائل الإعجاز" فهو يرى أن النظم هو وحده لبُّ الإعجاز وسرّه.

وقد كانت البلاغة خلال هذه الفترة تسير بخطى ثابتة وكانت فنًّا موحّدًا لم يفصل بين فنونها، إلى أن جاء السكاكي[4]، فجعل القسم الثالث من كتابه مفتاح العلوم خاصًّا بالبلاغة وجعلها ثلاثة أقسام: المعاني والبيان والبديع[5]، وبذلك فقد حوّل السكاكي البلاغة من فن يعتمد على الذوق إلى علم له قواعده وأصوله التي يعتمد عليها، ويمكن القول أن السكاكي استطاع تحقيق أمرين:

1- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص146.

2- المصدر نفسه، ص 146.

3- المصدر نفسه، ص147.

4- هو يوسف بن أبي بكر بن مُحَمَّد بن علي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب السكاكي سراج الدين عالم بالعربية والأدب، مولده بخوارزم، وتوفي سنة 626هـ، ينظر: الأعلام للزركلي، ج8، ص222.

3- ينظر: مفتاح العلوم للسكاكي، تحقيق حمدي مُحَمَّدي قابيل، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، ط:1، " ت"، ص151 وما بعدها.

أولهما: أن يصل إلى علم دقيق له أصوله وقواعده مستفيدًا من مجهودات السابقين وملاحظاتهم إضافة إلى أفكاره التي وصل إليها.

ثانيهما: صياغة كل ذلك في صيغ مضبوطة مستعينًا بقدرته على توظيف القواعد المنطقية في التبويب والتقسيم والتشعيب[1].

أهمية دراسة البلاغة:

لا يختلف اثنان حول أهمية البلاغة العربية سواء باعتبارها فنًّا، أم علمًا له قواعده وأركانه، فهي فن الخطاب مع الآخر، وجسر للتواصل معه حسب ما يقتضيه الحال الذي يكون عليه المخاطِب والمخاطَب.

ومن مظاهر أهمية علم البلاغة ما يأتي:

1- تساعد البلاغة على ترشيد الذوق وتقوّمه، وتسعى بالملكة الأدبية نحو النضج والكمال.

2- تقوم البلاغة بتعليل ما نشعر به من استحسان وأريحية، وتعلّل ما نجده من متعة عندما تقع أعيننا على نصٍ فصيحٍ أو كلام بليغٍ.

3- تبيّن البلاغة سرّ إعجاز القرآن، فأكثر العلماء يرون أن القرآن الكريم إنما كان معجزًا لفصاحته وبلاغته.

4- تسهم البلاغة في مساعدة الأديب ورجل الإعلام على إنتاج عمل أدبيّ رائع سواء كان شعرًا أم رسائلَ أم قصصًا أم غيرها من صنوف الأدب.

5- تمنع الأديب والشاعر من الوقوع في الخطأ في الأسلوب أو الخيال أو المعنى أو الغرض أو الفكرة.

6- يستطيع الأديب بدراسته لعلوم البلاغة من أن يكون ناقدًا متذوّقًا، وكاتبًا موهوبًا إلى ما سوى ذلك من المزايا التي تُستفاد من دراسة علوم البلاغة[1].

1- ينظر: علم المعاني، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط:1، 1985م، ص 25.

المبحث الثاني: الأسلوبية

1- تعريف الأسلوبية:

من معاني كلمة سلب في المعاجم العربية : ((... ويقال للسطر من النخيل أسلوب، وكل طريق ممتد فهو أسلوب، والأسلوب: الطريق والوجه والمذهب ويجمع أساليب.. والأُسْلوب بالضم الفن، يقال: أخذ فلانٌ في أساليب من القول أي أفانين منه، وإن أنفقه لفي أسلوب إذا كان متكبراً... والسَّلَب: ضربٌ من الشجر ينبت متناسقاً ...))[2].

وفى أساس البلاغة: ((سلب، سلبَه ثوبَه، وهو سليبٌ، وأخذ سَلَب القتيل وأسلاب القتلى، ولبست الثكلى السلاب وهو الحداد، وتسلّبت وسلّبت على ميتها فهي مُسلَّب، والإحْداد على الزوج، والتسليب عام، وسلكت أسلوب فلان أي طريقته وكلامه على أساليب حسنة، ومن المجاز: سلَبَه فؤاده وعقله واستلبه وهو مستلَب العقل، وشجرة سليبٌ: أخذ ورقها وثمرها، وشجر سُلُبٌ، وناقة سلوب أخذ ولدها، ونوق سَلائب، ويقال للمتكبر: أنفه في أسلوب إذا لم يلتفت يمنة ولا يسرة))[3].

أما من الناحية الاصطلاحية فيظهر الفرق بين مصطلح الأسلوب ومصطلح الأسلوبية، فإن مصطلح الأسلوب أقدم وأوسع، فقد بُدِئ في استعمال مصطلح الأسلوب في القرن الخامس عشر، وكان يقصد به النظام والقواعد العامة، مثل أسلوب المعيشة أو الأسلوب الموسيقى، أو الأسلوب الكلاسيكي في الملبس والأثاث، أو الأسلوب البلاغي، أما مصطلح الأسلوبية فقد ظهر في القرن العشرين وهو يقتصر على حقول الدراسات الأدبية [4]، فالأسلوب أعم والأسلوبية أخص.

1- ينظر: البلاغة العربية بين التقليد والتجديد، مُحَمَّد عبد المنعم خفاجي، عبد العزيز شرف، دار الجيل، بيروت، لبنان ط1 ، 1992م، ص33.

2- لسان العرب ابن منظور، دار الحديث، القاهرة، ط:1، 2003م، ج4 مادة (س.ل.ب).

3- أساس البلاغة، الزمخشري، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1992م مادة (سلب).

4- ينظر: دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، أحمد درويش، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1998م، ص16.

وليس للأسلوب تعريف محدد متفق عليه يلامس حقيقته، غير أنه في محاولة للوصول إلى ماهيته ذكر "جورج بوفون" في عمله المشهور (مقال في الأسلوب) بعدما أدان فكرة أن الأسلوب هو الطبقة ذكر أن "الأسلوب هو الرجل" فربط قيم الأسلوب الجمالية بخلايا التفكير الحية والمتغيرة من شخص إلى شخص بقوالب التزيين الجامدة التي يستعيرها المقلدون عادة من المبدعين دون إدراك حقيقي لقيمها أو استغلال جيد لها[1].

وأوضح مُحَمَّد عبد المطلب عبارة بوفون بقوله: ((... فلكل منشئ طابعه الخاص في تفكيره وتعبيره يمتاز به عن الآخر في هذه العناصر ، دون أن ننسى أن المرجع في اختلاف الأسلوب هو نفس الإنسان وما يعرض له من دوافع ينشيء فيها الأدب فهو تارة يعتمد على عقله، وتارة يعتمد على عاطفته، وتارة يجمع بين العقل والعاطفة. وبتشكُّل نفس المنشئ تصدر فنون متباينة، ولكلٍّ أسلوبه الخاص وغايته الممتازة، فالشخص واحد والفن مختلف))[2].

وقد التبس في أمر الأسلوبية بين اعتبارها من المعارف المختصة بذاتها، أو اعتبارها مجرد مواصفة لسانية أو منهج في الممارسة النقدية. فيرى "آريفاي" أن الأسلوبية "وصف للنص الأدبي حسب طرائق مستقاة من اللسانيات[3]، ويرى "دولاس" أن الأسلوبية تعرف بأنها منهج لساني[4]. أما "ريفاتار" فإنه ينطلق من تعريف الأسلوبية بأنها: علم يهدف إلى الكشف عن العناصر المميزة التي بها يستطيع المؤلف الباث مراقبة حرية الإدراك لدى القارئ المتقبل، والتي بها يستطيع أيضاً أن يفرض على المتقبّل وجهة نظره في الفهم والإدراك فينتهي إلى اعتبار الأسلوبية "لسانيات" تعنى بظاهرة حمل الذهن على فهم معين وإدراك مخصوص[5].

1- ينظر: المصدر نفسه، ص18.

2- البلاغة والأسلوبية مُحَمَّد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة، ط1، 1994م، ص114.

3- الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدّي، الدار العربية للكتاب طرابلس، ليبيا، ط3، " ت" ص48.

4- ينظر: المصدر نفسه، ص 49.

5- ينظر: المصدر نفسه، ص49.

2– نشأتها:

نشأت الأسلوبية الحديثة بعيدة عن العرب ولغتهم وإن ظهر للأسلوبية بعض الجذور العربية وبخاصة في كتب عبد القاهر الجرجاني، غير أن الأسلوبية الحديثة نشأت وترعرعت في الغرب، ويبدو أن "شارل بالّي" 1902م أول من أسس دعائم علم الأسلوب، مثلما أرسى أستاذه "فرد يناند دي سوسير" أصول اللسانيات الحديثة، وفي عام 1941م عبّر "ماروزو" عن أزمة الدراسات الأسلوبية وهي تتذبذب بين موضوعية اللسانيات ونسبية الاستقراءات وجفاف المستخلصات، فنادى بحق الأسلوبية في شرعية الوجود ضمن أفنان الشجرة اللسانية العامة[1] وهذا الذي حصل، فبعد أخذ ورد عقدت بجامعة "آنديانا" بالولايات المتحدة الأمريكية ندوة عالمية حضر إليها أبرز اللسانيين ونقاد الأدب وعلماء النفس وعلماء الاجتماع وكان محورها الأسلوب، ألقى فيها "جاكبسون" محاضرته حول "اللسانيات والإنشائية" فبشّر يومها بسلامة بناء الجسر الواصل بين اللسانيات والأدب.

وفي عام 1969م بارك الألماني "أولمان" استقرار الأسلوبية علماً لسانيًّا نقديًّا، قائلاً: ((إن الأسلوبية اليوم هي من أكثر أفنان اللسانيات صرامة على ما يعتري غائيّات هذا العلم الوليد ومناهجَه ومصطلحاته من تردد، ولنا أن نتنبأ بما سيكون للبحوث الأسلوبية من فضل على النقد الأدبي واللسانيات معاً))[2].

والأسلوبية تنبسط على رقعة اللغة كلها، فجميع الظواهر اللغوية ابتداء من الأصوات حتى أبنية الجمل الأكثر تركيباً يمكن أن تكشف عن خصائص أسلوبية في اللغة المدروسة، وجميع الوقائع اللغوية مهما تكن يمكن أن تنشق عن لمحة من حياة الفكر أو نبضة من الحساسية، إن علم الأسلوب لا يدرس قسماً من اللغة بل اللغة بأكملها منظوراً إليها من زاوية خاصة[3]،

1– ينظر: المصدر نفسه، ص20، 22.

2– الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدّي، ص23، 24.

3– ينظر: اتجاهات البحث الأسلوبي، شكري محمّد عياد، أصدقاء الكتاب، القاهرة، مصر، ط3، 1999م، ص31.

ويمكن القول أن علم الأسلوب هو البلاغة الحديثة فهو مكمل لها، يقول صلاح فضل: ((وعندما شب علم الأسلوب أصبح هو البلاغة الجديدة في دورها المزدوج، كعلم للتعبير ونقد للأساليب الفردية))[1]. ويقول عبد السلام المسدّي: ((فالأسلوبية –شأنها شأن البلاغة في التفكير الإنساني عامة– لا تستقيم حدودها ما لم تُسَلَّم بمصادرة جذريَّة ألا وهي سعي الحيوان الناطق إلى إدراك التبليغ الأكمل ...))[2].

3– مناهجها:

يظهر أن تيار الأسلوبيات قد فرض نفسه في الساحة النقدية فأصبح المؤثر الأول على فاعليتها الجمالية دون أن يكون في ذلك أدنى مصادرة لتيارات نقدية أخرى ... وقد ازدادت أهمية الدرس الأسلوبي بعد أن تعددت مداخله، محاولاً التخلص من سيطرة علم اللغة عليه، فقد خالطه في البداية نوعٌ من الاتساع الشديد ما دفعه للالتحام بعلم اللغة العام[3]. وتنوعت مناهج البحث الأسلوبي وتباينت بشكل ملفت للنظر، فقد كان "بومفيلد" زعيم المدرسة اللغوية الأمريكية يقول: إننا يجب أن نبدأ أية دراسة للغةٍ ببحث الصيغ لا ببحث الدلالات ... وقد انتقلت نفس هذه النظرية اللغوية إلى مجال علم الأسلوب ...[4]. ويرى البعض ضرورة الاهتمام بالتذوق الشخصي، والتسلّح به قبل المقدرة العلمية، يقول "كايسر" عن منهج التحليل الأسلوبي: ((على من يتصدى للبحث في أسلوب عمل أدبي معين أن يترك هذا العمل يمارس تأثيره الشامل العميق عليه بدون أن يوجه أي اهتمام ثانٍ للملامح والخواص الأسلوبية، فالبحث

1– علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، دار البلاد للطباعة والنشر، جدة، المملكة السعودية، الطبعة الثالثة، " ت" ، ص199.

2– الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدّي، ص37.

3– ينظر: قراءات أسلوبية في الشعر الحديث، مُحَمَّد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995م، ص11.

4– ينظر: علم الأسلوب، صلاح فضل، ص214.

الأسلوبي ليس عملية برهنة رياضية على مقولات مسبقة، ولكي تبدأ فأنت محتاج لشحذ كل حساسيتك وقوتك على الحدس دون أن تتخلى عنهما في المراحل التالية))[1].

ويمكن لمناهج الأسلوب الحديثة ببعض الإجراءات التحليلية الدقيقة أن تدرس شخصية المؤلف عبر معالم محددة من أسلوبه، ومن أبرز الصعوبات التي تعترض هذا النوع من التحليل أنه يمكن أن يؤدىَ إلى تزييف سيرة الكتاب بالافتراض الساذج بوجود علاقة حتمية بين شخصية المؤلف وأسلوبه، ما يحمل الناقد على الحذر الشديد في إقامة هذا الربط[2]. ويرى مُحَمَّد عبد المطلب أن المنهج الإحصائي له مكانة كبيرة في مجال الأسلوبيات كونه نموذجاً للدقة العلمية التي لا تترك مجالاً لذاتية الناقد كي تنفذ إلى العمل الأدبي، لكنه بالمقابل نبّه إلى أن المنهج الإحصائي لقي ما لم يلقه غيرُه من نقد وتجريح، لأننا عندما نعمد إلى الإحصاء في دراسة الأساليب نحيل اللغة الأدبية إلى شيء بلا لون ولا طعم إذ نهمل ما في التراكيب المتعلقة من إحساسات تتصل بالعالم النفسي، والمجال اللغوي بطبعه يتصل بعالم الإحساسات[3]. ويذهب البعض إلى أن من أنجح محاولات البحث الأسلوبي تلك التي تعتمد على التوصيف اللغوي بكل أسسه الموضوعية العلمية مستخرجة ما في النص من شحنة عاطفية تُصيغها النية الجمالية عند المبدع [4]. وهو لا يهمل الخبرة الثقافية في مجال الدرس الأسلوبي وهو أمر لا يمكن وضعه تحت ضوابط الأسس الموضوعية، لكنه يفيد في الكشف عن بعض العلاقات بين الدال ومدلولاتها بطريقة تقترب من هذه الموضوعية، ويرى أن ناقداً فذًّا كعبد القاهر الجرجاني ربما لم يستطع أن يصل إلى عمق فهمه من خلال الصياغة إلا بالإفادة –في كثير من الأحيان– بذلك البعد الثقافي الذي اختزنه في حافظته اللغوية والنقدية [5].

1– المصدر نفسه، ص217.

2– ينظر: علم الأسلوب، صلاح فضل، ص227.

3– البلاغة والأسلوبية، مُحَمَّد عبد المطلب، ص198، 199.

4– ينظر: المصدر نفسه، ص199، 200.

5– ينظر: المصدر نفسه، ص200.

ومن خلال عرض بعض هذه المناهج الأسلوبية يتضح أن الدرس الأسلوبي علم ناشئ يتلمس طريقه ومناهجه ومصطلحاته، يقول "ستيفن ألمان": ((إن الانطباع العام الذي نخرج به من هذا المسح السريع للاتجاهات الحالية في الدراسات الأسلوبية هو أننا أمام علم ناشئ مفعم بالحركة والحيوية، ولكنه لا يزال غير محدد ولا منظم، فهناك تجارب كثيرة، وأفكار كثيرة تتخمر، وفي الوقت نفسه لا يملك هذا العلم نظاماً من المصطلحات مسلماً به، ولا تحديداً للغايات والمناهج متفقاً عليه))[1].

4– اتجاهاتها:

تتميّز الأسلوبية بكثرة اتجاهاتها وتنوعها، من ذلك ما يأتي:

1– الأسلوبية التعبيرية:

ومن رواد هذا الاتجاه "شارل بالي" وتعني التعبيرية عنده طاقة الكلام الذي يحمل عواطف المتكلم وأحاسيسه، فهي تدرس العلاقة بين الصيغ والفكر، ولا تخرج عن نطاق اللغة، ولا تتعدى وقائعها، ويعتد فيها بالأبنية اللغوية ووظائفها داخل اللغة فهي وصفية بحثية.

2 – الأسلوبية الإحصائية:

تعتمد الأسلوبية الإحصائية على الإحصاء الرياضي في محاولة الكشف عن خصائص الأسلوب الأدبي في عمل معيّن ما يجنّب الباحث الوقوع في الذاتية والانطباعية.

3– الأسلوبية الفردية (أسلوبية الكاتب):

وتسمى بالأسلوبية النفسيّة وتتمثل في دراسة علاقة التعبير بالفرد أو الجماعة التي تبدعه، وتهتم بالتعبير في علاقته بالأشخاص المتحدثين به، وتحدد بواعث اللغة وأسبابها، ومن أشهر ممثليها: (ليوسبيتزر) الذي اهتم بالمبدع وتفرده في طريقة الكتابة.

4– الأسلوبية البنيوية:

تعد الأسلوبية البنيوية مداً مباشراً من اللسانيات البنيوية التي تعتمد أساساً على دراسات "دي سوسير"، فهي والبنيوية تنطلق دراساتهما من النص بوصفه بنية مغلقة، وتركز الأسلوبية

1- اتجاهات البحث الأسلوبي، ص11.

البنيوية على تناسق أجزاء النص اللغوية، وهي تهتم بتحليل النص الأدبي بعلاقات التكامل بين العناصر اللغوية في النص وبالدلالات والإيحاءات التي تحققها تلك الوحدات اللغوية.

5– أسلوبية الانزياح "الانحراف":

تقوم على المبدأ الأسلوبي الذي يفهم الخواص الأسلوبية على أنها انزياح عن اللغة الاعتيادية، والأسلوب هنا هو انزياح أو انحراف عن المعيار المتعارف عليه، وبذلك يعرف البحث الأسلوبي بأنه علم الانحرافات، ويؤخذ على الاتجاه عدم تحديد معيار الانزياح تحديداً دقيقاً، وكذلك إغفاله مقولتي المتلقي والمبدع.

6– الأسلوبية الأدبية:

وتهتم بدراسة الأسلوب الأدبي والنصوص الأدبية بالذات، وينصب اهتمامها على تأويلها عن طريق دراسة منظومة اللغة، وانتقاء السمات الأسلوبية المهمة عن طريق الحدس لبيان وظائفها، ويسعى أصحاب هذا الاتجاه إلى اكتشاف الوظيفة الفنية للغة النص الأدبي، وذلك عن طريق التكامل بين الجانب الأدبي والجمالي الذي يهتم به الناقد، والجانب اللغوي اللساني.

7– الأسلوبية التأثيريّة:

ينصب اهتمامها على تأثيرات النص على القارئ من خلال استجابته وردود أفعاله وتناميها مع قراءة النص، ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن القارئ مؤلف جديد للنص، له الحق في توسيع دلالته من خلال تجربته هو، وقد انْتُقِدت الأسلوبية التأثيرية بأنه ليس هناك معايير تضبط استجابة القارئ للنص، وليس هناك تعليل لردود أفعال القارئ.

8– الأسلوبية الصوتية:

يقابلها في العربية "علم الجمال اللغوي"، فموضوعها دراسة الوحدات الصوتية، والسياق الصوتي في النص الأدبي، وتفسير العلامات التي أدت معانٍ وإيحاءات، وصوراً ساعدت في نقل الفكرة، وتعتمد على مفهوم المتغيرات الصوتية الأسلوبية، وبمقدار ما يكون للغة حرية التصرف

ببعض العناصر الصوتية للسلسلة الكلامية، بمقدار ما تستطيع أن تستخدم تلك العناصر لغايات أسلوبية[1].

المبحث الثالث: بين البلاغة والأسلوبية

تحدث كثير من النقاد والأدباء عن العلاقة بين البلاغة والأسلوبية، فاعتبر كثيرٌ منهم أنَّ الأسلوبية هي البلاغة الجديدة ((وعندما شب علم الأسلوب أصبح هو البلاغة الجديدة في دورها المزدوج، كعلم للتعبير ونقد للأساليب الفردية))[2]. وذهب صلاح فضل إلى أبعد من ذلك فقال: ((إن البلاغة فقدت أهميتها، وأصبحت لا قيمة لها باعتبارها مجموعة من التصورات والمفاهيم التقنية المعيارية فلم تعد لها فاعلية القواعد التي كانت تفرض بها وجودها، وأنها قد ذابت وانحلّت في علم الأسلوب الحديث))[3].

ولست أدرى سبب هذا التجني على البلاغة بتفضيل علم الأسلوب عليها واعتبارها في عداد الموتى ووريثها الشرعي هو علم الأسلوب!! وإغفال دورها في المحافظة على اللغة العربية بإبراز محاسنها عبر العصور وإسهام البلاغة في إيضاح ما خفي من معاني القرآن وتبيان أوجه إعجازه ، ولا ينبغي أن يكون ظهور علم جديد على حساب علم آخر ولو كان شبيهاً به.

وتتشابه البلاغة والأسلوبية في نقاط وتختلف في أخرى ، وقد تناول كثير من الباحثين هذا التقارب بين البلاغة والأسلوبية، ولعل من أشهر من تناول هذا الموضوع مُحَمَّد عبد المطلب في كتابه "البلاغة والأسلوبية" بيّن فيه جذور الأسلوبية في التراث العربي من خلال حديثه عن مجهودات عبد القاهر الجرجاني وابن الأثير في هذا الإطار ، ويرى مُحَمَّد عبد المطلب أنه لا ينبغي الانحياز إلى القديم لقدمه أو إلى الجديد لجدته، يقول في مقدمة كتابه : ((... والحديث عن الأسلوبية هو الوسيلة الصحيحة لعقد المقارنة بينها وبين موروثنا البلاغي، من خلال تحديد

1- ينظر: بين البلاغة واللسانيات جذور منهج الأسلوبية في البيان العربي، أ. بديعة الهاشمي، مجلة الرافد تصدر عن دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ديسمبر 2012م، العدد: 184، ص120.

2- علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، ص199.

3- علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، ص202.

مفهوم الأصالة والمعاصرة، بحيث لا يكون هناك تعصب لقديم أو انغلاق أمام جديد))[1]، ويرى أنه يمكن ربط ما تملكه البلاغة من مقومات تعبيرية بالأدب عبورًا على الأسلوبية، ثم ربطها بالنقد الأدبي، بحيث يمكن أن تمثل مزاوجة البلاغة بالأسلوبية نوعًا من النقد يركز في مجمله على النص في صياغته دون دخول في جوانب فرعية لا تتصل بصميم التركيب اللغوي ، ويمكن لهذا النقد الجديد أن يتعامل مع النص الأدبي من خلال فهم لإمكاناته وطاقاته ... وهذا كله لا يحجب ما قدم من جهدٍ في قراءة البلاغة القديمة قراءة جديدة مع محاولة ربطها بالبحث الأسلوبي الحديث[2].

ويفهم من عموم كلام مُحَمَّد عبد المطلب تقديره للبلاغة العربية وما تحمله من مقدرة لغوية ، ويمكن بمزاوجة البلاغة مع الأسلوبية الخروج بعملية نقدية مرضية.

ومع كل ما ذكره عن البلاغة العربية وما تميّزت به فإن مُحَمَّد عبد المطلب كرر تقريبًا ما قاله صلاح فضل عن وراثة الأسلوبية للبلاغة فقال بعد ذكره لبعض القصور التي عدّها على البلاغة القديمة : ((...وقد أتاح هذا القصور للأسلوبية أن تكون وريثة شرعية للبلاغة القديمة ...))[3].

وتتفق البلاغة مع الأسلوبية في كثير من الأمور منها:

1- الأدب هو محور البحث في كل من البلاغة والأسلوبية.

2- البلاغة والأسلوبية كلتاهما تهتمان بالقائل والمتلقي والرسالة، فلا يمكن إغفال واحد من الأركان التي يقوم عليه التوصيل.

3- البلاغة والأسلوبية يشترط فيهما مواءمة المتكلم بين طريقة الصياغة وأقدار السامعين، فكل منهما يفترض حضور المتلقي في العملية الإبداعية.

1- البلاغة والأسلوبية، مُحَمَّد عبد المطلب، ص3.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص7.

3- البلاغة والأسلوبية، مُحَمَّد عبد المطلب، ص 259.

4- البلاغة والأسلوبية تبرزان مواطن الجمال ومواطن القبح في النص الأدبي، وبالتالي فإن كلتيهما تصدران الحكم عليه بالحسن أو الرداءة بناء على كثرة مواطن الحسن أو القبح.

5- استفاد علم الأسلوب –على ما يبدو– من مباحث البلاغة مثل علم المعاني والبيان والبديع وما يتصل بالموازنات بين الشعراء وأساليبهم الفردية.

ومع أنَّ مادة البلاغة والأسلوبية واحدة وهي لغة الأدب، لكنهما يختلفان وراء ذلك اختلافًا كبيرًا ، ولعل سعد مصلوح من أكثر من اهتم بالعلاقة بين البلاغة والأسلوبية ، ففي كتابه "في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية" خصّص المبحث الأول منه للحديث عن هذا الموضوع أسماه "مشكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية" ذكر فيه أنّ البلاغة علمٌ له جذورٌ عربيةٌ عريقةٌ، وكانت نشأتُها تلبيةً لحاجةٍ ملحةٍ ... وقد ظلت البلاغة عبر مراحلها المختلفة وفيّةً للغاية التي انتدبت لتحقيقها، أمّا الأسلوبيات فلا تزال –باتجاهاتها ذات الصلة الوثيقة باللسانيات– غريبةً وافدةً علينا، وما زال أهلها يبحثون لها عن دورٍ تقوم به في إعادة صياغة النظرة العربية المعاصرة إلى دراسة النص الأدبي ، ومن هنا تأتي الصعوبة في صياغة العلاقة بين علم رسا ورسخ ، وآخر لا يزال يلتمس طريقه إلى ثقافتنا العربية[1].

وقد حدّد سعد مصلوح مظاهرَ الاختلاف بين البلاغة والأسلوبية في الآتي:

1- مادة البلاغة هي الشواهد المتفرّقة والأمثلة المجتزأة ما عدا مبحث الفصل والوصل، فهو يعالج الربط بين الجملتين، بينما يعالج الدرس الأسلوبي اللساني نصًّا أو خطابًا أو مدونة corpus "المجموعة" والتي تشتمل على عدة نصوص.

2- الوحدة المعتمدة في التحليل عند أهل البلاغة هي "الفن البلاغي" بينما في الأسلوبيات اللسانية المعول عليه في التحليل هي الخاصية الأسلوبية ولا تكون إلا داخل النص خلافًا للفن البلاغي.

1- ينظر: في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة، سعد عبد العزيز مصلوح، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 2006م، ص22.

3- لا تعد الخاصية أسلوبية بمجرد وجودها في النص، إذ إنَّ النظر إليها بهذا الاعتبار يرتبط بالشيوع والندرة، ومن ثمّ كان البعد الإحصائي جزءًا من ماهيتها، أما الفنون في البلاغة فهي قائمة يتساوى جميع مفرداتها في فرص ورودها من جهة الإمكان العقلي.

4- علوم البلاغة تعالج الإمكانات التعبيرية في اللغة من جهة قواعدها، أما الفحص اللساني الأسلوبي فموضوعه الكلام والأداء.

5- تختص البلاغة بفحص نوعٍ معيّنٍ من الكلام وهو "الكلام الأدبي" أما الفحص الأسلوبي اللساني فيشمل جميع أجناس الكلام سواء كان أدبيًّا أم غير أدبي، وإن كان الكلام الأدبي هو الأكثر تميّزًا من المنظور الأسلوبي.

6- تتجه علوم البلاغة في اختيار مادة فحصها في الأعمّ الأغلب إلى الجيد والمتميّز من الكلام الأدبي، أما في المبحث الأسلوبي اللساني فللنص المحكوم عليه بالرداءة أهمية لا تقل على النص المحكوم عليه بالجودة ذلك أن ظاهرة التميّز الأسلوبي واردة في الصنفين.

7- غاية البلاغة تشريعية تعليمية عملية، أما غاية الأسلوبيات اللسانية فهي بحثية تشخيصية وصفية.

8- الأساس المنهجي لعلوم البلاغة هو المنطق الأرسطي أي علم الحد والاستدلال، أما الأسلوبيات اللسانية فقد تحدد مجالها في إطار اللسانيات بعد أن تخلّصت من التبعية المنهجيّة.

9- تعترف الأسلوبيات اللسانية بإمكان بحث ظواهر الأسلوب بحثًا آنيًّا synchronic أو زمانيًّا diachronic فيما يسمى بالأسلوبيات السكونيّة static stylistic والأسلوبيات الحركيّة dynamic stylistics، أما الطابع الغالب على البحث البلاغي فهو اللازمانيّة achronism والأسلوبيات اللسانية بهذا التصنيف أقرب إلى خدمة مجالات كثيرة أخرى من الدرس الأدبي كالنقد والتاريخ الأدبي.

10- يغلب على تقسيم علوم البلاغة وترتيب مباحثها الطابع التفتيتي atomism في حين تغلب تصورات البنية structure والنسق system والعلاقتية relationism والتوزيعية

distributionism وقواعد التحويل transformational rules على اتجاهات لسانيّة مختلفة في دراسة الأسلوب.

11- لم يكن لعلوم البلاغة مندوحة من الاعتماد على نحو الجملة sentence grammar أو لسانيّات الجملة sentence linguistics وهي الدراسة اللسانية التي تعتمد الجملة ... أما الأسلوبيات اللسانيّة فقد انفتح أمامها آفاق من البحث لا حدود لها ...[1].

ويرى بعض النقاد أنَّ في البلاغة العربية بعضًا من أوجه القصور حُدّد في النقاط الآتية:

1- البلاغة تتسم بالمعيارية ويعتبر فيها البلاغيون أنفسهم أوصياء على الإبداع فجعلوا لها قواعد وأسسًا لا يستطيع الأدباء الحياد عنها، فهي كالسيف المسلّط عليهم.

2- أغفلت الدراسات البلاغية جوانب مهمة في الأداء الفني كالجانب النفسي والاجتماعي.

3- وقفت الدراسات البلاغية عند جزئيات النص، ولم تحاول الوصول إلى بحث العمل الأدبي كاملًا شعرًا ونثرًا.

4- القواعد البلاغية أصبحت قواعد جافة متحجرة[2].

مما سبق عرضه يتضح أن البلاغة العربية متَّهمةٌ بعدة تهم، فوصفت تارة بأنها ضد الإبداع، وأنها قواعد متحجرة، وأنها تتعامل مع جزءٍ من النص الأدبي ... وفي اعتقادي أنه من التجني على البلاغة مقارنتها بالأسلوبية لاختلاف ظروف النشأة لكلتيهما، فقد حققت البلاغة أهداف نشأتها، ومنها الوقوف على أوجه إعجاز القرآن وبيان إعجازه وإيضاح ما غمض من معانيه، والكشف عن مواطن الجمال في اللغة العربية وإبرازها، وقد تحققت هذه الأهداف تقريبًا عبر سلسة طويلة من المؤلفات في هذا العلم في فنونه الثلاث المعاني والبيان والبديع، ولم يكن مطلوبًا من البلاغة العربية أكثر من ذلك، فلم يكن الهدف المرجوّ من البلاغة التعامل مع كل

1- ينظر: في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة، سعد عبد العزيز مصلوح، ص67، 71.

2- ينظر: البلاغة والأسلوبية، مُحَمَّد عبد المطلب، ص258، 260.

جزئيات النص الأدبي والولوج في الجوانب النفسية والاجتماعية كما هو الحال في الأسلوبيات اللسانية ، ومع هذا فقد كانت للبلاغة العربية وقفات جميلة على الجانب النفسي، من ذلك أحوال الإسناد الخبري وما يحدث فيه من تغيرات تقتضيه حالة المتكلم، يروى أن الكندي الفيلسوف سأل أبا العباس قائلاً: ((إني أجد في كلام العرب حشواً يقولون عبد الله قائمٌ، وإنَّ عبد الله قائمٌ، وإن عبد الله لقائمٌ، والمعنى واحدٌ، قال: بل المعاني مختلفةٌ، فعبد الله قائم إخبار عن قيامه، وأن عبد الله قائم جوابٌ عن سؤال سائل، وإن عبد الله لقائم جوابٌ عن إنكار منكر، ويسمى النوع الأول من الخبر ابتدائيًّا، والثاني طلبيًّا، والثالث إنكاريًّا، وإخراج الكلام على هذه الوجوه إخراجًا على مقتضى الظاهر))[1]، أليس ذلك من الدواعي النفسية التي تراعى فيه نفسية المتلقي؟ وكذلك الأمر في بعض المحسنات البديعية كالتورية والمدح بما يشبه الذم، والذم بما يشبه المدح، وأسلوب الحكيم وغيرها، فإن فيها وقفات نفسية بين المتكلم والمتلقي جديرة بالاهتمام، يتبيّن من ذلك أن البلاغة العربية تتسم بالمرونة وبمراعاة الحالة النفسية التي عليها المتلقي في كثير من مباحثها فمن التجني عليها وصفها بالتحجر وعدم مراعاة الحالة التي يكون عليها المتلقي.

أما الأسلوبية فإن مناهجها قد تكون أوسع وأشمل من البلاغة، وتستطيع أن تبسط نفوذها على عموم النص جملاً وكلمات وحروفًا، كما يمكنها بالنظر إلى تنوع مناهجها أن تبسط نفسها على مساحة أوسع من النص، وتصل بالتالي إلى نتائج أدق من البلاغة العربية، لكن هذا ينبغي أن لا يعد على البلاغة العربية صفة نقص وضعف فيها، فكل من البلاغة والأسلوبية إنما تعمل بناء على الأهداف المحددة لها مسبقًا وحسب الآليات المتوفرة في كل منهما.

1- الإيضاح في علوم البلاغة ،جلال الدين القزويني، تقديم علي أبو ملحم، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط2، 1991م، ص 44، 45.

نتائج البحث

بعد هذا التنقل بين البلاغة والأسلوبية وبيان منهج كلٍ منهما ومعرفة ميزاتهما ونقاط الاتفاق والاختلاف بينهما ، يمكن أن نخلص إلى النتائج الآتية:

1- الإعجاز القرآني وفساد الذوق الفطري وتفشي اللحن من أشهر الأسباب التي أسهمت في وضع علم البلاغة.

2- كان للبلاغة العربية دورٌ جدُّ مهم في بيان ما خفي من معاني القرآن الكريم وكلام العرب المنظوم منه والمنثور.

3- نشأت الأسلوبية الحديثة في بيئة بعيدة عن موطن اللغة العربية على الرغم من أنَّ للأسلوبية جذورًا عربية.

4- تميّزت الأسلوبية باتجاهات عديدة ومناهج منوّعة جعلتها تبسط سيطرتها على رقعة واسعة من الظواهر اللغويّة أصواتًا وألفاظًا وتراكيب.

5- تشابهت الأسلوبية مع البلاغة أحيانًا واختلفت أحيانًا أخرى، غير أنه لكلٍ منهما أهدافٌ واتجاهاتٌ تختلف عن الآخر.

6- غالى بعضهم في الرفع من قيمة الأسلوبية واعتبرها الوريث الشرعي للبلاغة التي – في نظره– انتهى دورها وذابت في الأسلوبية، والحقيقة غير ذلك.

7- ينبغي ألاَّ يُفصل بين البلاغة والأسلوبية فصلاً تعسفيًّا فكل منهما مكمّل للآخر، فهما متفقتان في الهدف مختلفتان في المنهج، مع شرف السبق للبلاغة العربية باعتبارها مظهرًا من مظاهر الإعجاز القرآني.

المصادر والمراجع

أولا: الكتب:

- القرآن الكريم، مصحف المدينة.

1- اتجاهات البحث الأسلوبي، شكري مُحَمَّد عياد، أصدقاء الكتاب، القاهرة، مصر، ط:3، 1999م

2- أساس البلاغة ، الزمخشري، دار صادر، بيروت، لبنان، ط:1، 1992م.

3- الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدّي، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، ط:3، "ت".

4- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط:10، 1992م.

5- الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين القزويني، تقديم: علي أبو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط:2، 1991م.

6- البلاغة العربية بين التقليد والتجديد، مُحَمَّد عبد المنعم خفاجي، عبد العزيز شرف، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط:1، 1992 م.

7- البلاغة والأسلوبية، مُحَمَّد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة، ط:1، 1994م.

8- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط:7، 1998م.

9- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط:2، 1978م.

10- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الخطابي والرماني والجرجاني، تحقيق مُحَمَّد خلف الله و مُحَمَّد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط:2، 1968م.

11- الحيوان للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة مصطفى البابي، القاهرة، مصر، ط:2، 1965م.

12- دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، أحمد درويش، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط:1، 1998م.

13- ديوان الأعشى، مُحَمَّد حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط:1، " ت".

14- علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، دار البلاد للطباعة والنشر، جدة، المملكة السعودية، ط:3، "ت".

15- علم المعاني، د عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط:1، "ت".

16- في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية آفاق جديدة، سعد عبد العزيز مصلوح، عالم الكتب، القاهرة، ط:1، 2006م.

17- قراءات أسلوبية في الشعر الحديث، مُحَمَّد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط:1، 1995م.

18- لسان العرب، ابن منظور، دار الحديث، القاهرة، ط:1، 2003م.

19- مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن مثنى، تحقيق مُحَمَّد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط:1، "ت".

20- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط:1، 1993 م.

21- مفتاح العلوم للسكاكي، تحقيق حمدي مُحَمَّدي قابيل، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، ط:1، " ت".

22- الملل والنِّحل للشهرستاني بهامش كتب الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الظاهري الأندلسي، دار صادر، بيروت، لبنان، ط:1، "ت".

ثانيًا الدوريات والمجلات:

1- مجلة الرافد تصدر عن دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، العدد184، ديسمبر2012م.